التاريخ في سير أبطاله

مازيني

[رسول الحرية إلى قومه ، المجاهد الذي
أبلى في جهاده مثل بلاء الأنبياء]

للأستاذ محمود الخفيف

(تتمة)

ود مازيني لو أنه استطاع أن يجعل للأدب من وقته أكثر مما جعل له ، ولكن مشاغل السياسة حالت بينه وبين أمنيته ؛ وكان منذ عودته إلى لندن بعد ثورة عام ١٨٤٨ يوجه أكثر همه إلى الأدب الإنجليزي ، وقد أكب على دراسة حياة الشاعر الإنجليزي العظيم اللورد بيرون الذي أحبه أشد الحب لأنه الشاعر الذي هز القلوب وأيقظ المشاعر بأناشيد الحرية والقوة ، ولأنه ذلك الروح المتمرد على الطغيان والاستبداد ، ثم لأنه لم يكن رجل الفن الذي يجلس في معزل عن عصره يتغنى بالجمال ويستغرق في الفن استغراق الصوفي المسحور ، بل كان الرجل الذي كانت أغاني قيثارته صدى لآلام عصره وأحلامه ، والذي ذهب إلى حيث لاقى الموت في مناقع مسولنجي في سبيل الدفاع عن حرية اليونان

وجعل مازيني يوحي مبادئه إلى كل من يلاقيهم ، يريد بذلك أن يكسب لقضية إيطاليا أكثر ما يستطيع من الأنصار ؛ ثم أنشأ عام ١٨٥١ جمعية أصدقاء إيطاليا لهذا الغرض وسرعان ما انتظم في صفوفها كثير من ذوي المكانة من الإنجليز ، وفتحت لها بعض الجرائد الدائمة أبوابها ؛ فكانت من أكبر وسائل ... في الدعاية عن قضية وطنه . وكان لهذا الرجل أن يفخر يومئذ بأنه أدى إلى بلاده من جليل الخدمات ما لم يؤد مثله رجل غيره ، بل لقد كان له أن يفخر بأنه أدى إلى الجيل كله ما يجعله في مصاف قادته ويسلكه في سجل القلائل الأفذاذ الذين يباهي بهم تاريخ أوربا

لقد ملأ القلوب المستنيرين في إيطاليا كلها بمعاني الوطنية والحرية ولقنهم مبادئ الديمقراطية وسيادة الشعوب ، ونشأ الجيل كله في إلهامه ، فما من رجل من رجال السياسة وقادة الرأي في الولايات جميعاً إلا من تأثر بتعاليم هذا المجاهد العظيم ؛ ولئن كان فيهم من يخالفه في الوسيلة ، فما كانت الغاية التي يعمل على بلوغها إلا أنشودة كل وطني حر

على أنه وجد البلاد تتأثر بعد فشل حركات سنة ١٨٤٨ بسياسة بيدمنت، تلك السياسة التي كان يمثلها كافور، ذلك السياسي الفذ الذي يعد في حركة إيطاليا رأسها المفكر ؛ وكان كافور ومازيني على طرفي نقيض ؛ إذ كان أولهما رجل العمل الدبلوماسي الرشيد الذي يتحين الفرص ويسير إلى غايته في حذر وبطء ، ولكن في وثوق ، والذي جعل خطته تقوية بيدمنت أولاً ، ثم دفعها إلى الحرب متى آنس فيها القوة ووجد لها الفرصة ؛ وكان ثانيهما الزعيم الثائر الذي لا يفتأ يدعو البلاد إلى العصيان والتمرد لتبقى شعلة الجهاد متوهجة ، وتظل نار القلوب متأججة ، فلا يركن الشعب إلى القعود ، فينسى تلك الغاية التي تهيب بالرجال وتشد عزائم الأعزال وتوحي إليهم اليأس والاستبسال . وضاق الرجلان أحدهما بالآخر ، وكان كل منهما حرباً على صاحبه ؛ وهذا مما نعده على مازيني الذي وضع أصبعيه في أذنيه تلقاء كل دعوة إلى مشايعة أنصار بيدمنت وتعضيدهم ، والذي اعتبر كل قاعدة غير الوحدة والاستقلال مروقاً وإلحاداً في مبادئ الوطنية ودين الحرية ... وليت شعري ماذا كان يضيره لو أنه عضد كل حركة تقرب البلاد من غايتها ؛ على أنه لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد أخذ يدعو إلى الجمهورية ضد الملكية، جاعلاً بعمله هذا تلك المسألة الثانوية مقدمة على المسألة الرئيسية مما أضعف دعوته وزاد الناس إقبالاً على كافور وسياسته

وكذلك أخذ كثير من الناس يعيبون على مازيني اتخاذه الثورات وسيلة إلى تحقيق آماله ؛ وعابوا عليه أكثر من ذلك

تدبيره مؤامرات الاغتيال ، ولكنهم كانوا فى ذلك يرمونه بتهمة هو منها براء ، وقد رد مازينى على متهميه بأنه يرى الثورات ضد الغاصب المسلح وسيلة شرعية ، أما الاغتيال فإنه يعده جريمة إذا أريد به الانتقام أو إذا أدى إلى القضاء على شخص لا يذهب الاستبداد معه إلى القبر ؛ وكأنما كان يبرر اغتيال من يموت بموتهم الظلم ؛ يتجلى ذلك فى رده على اتهام كافور إياه بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال الملك فكتور عمانويل ، قال مازينى : « إن حياة الملك فى مأمن وذلك لسببين أولهما أخذه بقواعد دستورية فى حكمه ، وثانيهما أنه ليس ثمة من جدوى لهذه الجريمة »

على أن مازينى لم يعبأ بما يقول مخالفوه وما فتئ يترقب الفرص لإثارة الثورات من جديد ؛ وما لبث أن جاءته الأنباء عام ١٨٥٢ عن ثورة تدبر فى ميلان ضد النمسا بين صفوف العمال وكان فى هؤلاء كثير من شيعته ، نخف إليهم متنكراً حتى صار على مقربة منهم ، ولكن ثورتهم كان نصيبها الفشل السريع ، فاضطر الزعيم إلى العودة إلى انجلترة وفى نفســه من الألم والحزن والشعور بالخجل ما جاء عبأ جديداً فوق أعبائه ؛ ولقد حملت عليه صحافة بيدمنت حملات عنيفة وحملته مسؤولية هذه الحوادث وما ذهب فيها من ضحايا ، فازداد بذلك حنقه على الملكيين وتوالت حملاته هو أيضاً على خطتهم وعلى زعيمهم . وظل فى انجلترة يتربص ويتصل بشيعته فى وسط إيطاليا وشمالها ؛ وقد عقد النية على بعث ثورة كبرى فى الوسط والشمال تكون أبلغ رد على الملكيين ، وتكون قائمة على أساس وحدة إيطاليا وطرد النمسا وإقامة الحكم الجمهورى فى إيطاليا الموحدة ؛ واتصلت أسباب المودة بينه وبين قنصل أمريكا فى لندن ومناه القنصل بمعونة حكومته أن كان من أكبر دعاة الديموقراطية فى أوروبا

وذهب مازينى عام ١٨٥٤ متنكراً إلى باريس ثم إلى إيطاليا حيث كان يلتقى سراً بأنصاره ويوحى إليهم من خططه ما يوحى ، وكان يقضى أكثر وقته فى جنوة ، وكان تنكره يحير الشرطة وزعيمهم ، وهو فى الحق يعد من أغرب نواحى كفاح ذلك الرجل الذى قضى فى الجهاد إلى ذلك الوقت أكثر من ثلاثين عاماً بين اغتراب وسجن اختيارى وتنكر ، فما صرفه هذا العذاب عن وجهته وما قعد به الجهد عن غايته ، الأمر الذى يكفى وحده لأن يسلك هذا الرجل العظيم فى سلك أكبر زعماء الحرية فى جميع العصور ويلحقه بالشهداء والقديسين الذين وهبوا أرواحهم لخير الإنسانية

وبينما كان مازينى يعد العدة لثورته الجديدة كان كافور يمشى إلى غايته بخطى حكيمة تضمه هو أيضاً فى صف أعاظم الساسة فى تاريخ الأمم ؛ انتهت إلى كافور رياسة الحكومة فى بيدمنت عام ١٨٥٢ فجعل أولى خطاه إصلاح مرافق الولاية والنهوض بماليتها وبناء قوتها الحربية على أساس متين ، ولما تم له ذلك على خير ما يرجى أخذ يخطو خطاه السياسية وكانت تتجه إلى مكافحة النمسا بالأساليب الدبلوماسية أولاً ثم بالحرب آخر الأمر ؛ على أن يكون بدء الحرب من جانب النمسا فتكون هى المعتدية ، ويعتبر مسير كافور إلى غايته من أجمل وأقوى الحركات فى تاريخ السياسة الدولية

بدأ أولاً بالتدخل فى جانب المضطهدين السياسيين فى لمبارديا وفينشيا الذين صادرت النمسا أملاكهم عام ١٨٥٣ ، فجعل بيدمنت فى ذلك زعيمة المضطهدين فى إيطاليا ، فولى الأحرار شطرها وجوههم ؛ ثم واتته الفرصة فى حرب القرم فأرسل جيوش بيدمنت لمساعدة قضية الحلفاء ضد الروسيا ، فلما عقد مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٨٥٦ ، كان لبيدمنت مقعد فيه وهى مزية سياسية لها مغزاها بالنسبة لنفوذ النمسا ؛ وشكا كافور إلى رجال المؤتمر وقد كسب مودتهم بمساعدته قضيتهم من مسلك النمسا فى إيطاليا فهيأ ذلك الجو الصالح لخطواته فى المستقبل

واتجه كافور بعدها إلى فرنسا ، ومال إلى محالفة نابليون الثالث ، وكان نابليون يعطف على حركة إيطاليا إذ كان يرى نفسه وريث مبادئ سميه العظيم ، كما كان يطمع أن ينقض ما وضعه الساسة عام ١٨١٥ عقب هزيمة بونابرت ؛ لذلك اتفق كافور ونابليون سراً فى بلومبير عام ١٨٥٨ على أن يساعده نابليون ضد النمسا نظير أن تضم مقاطعة سافوى إلى فرنسا

وأوحى كافور إلى الملك فى بيدمنت أن يستفز النمسا ، فكان مما جاء فى خطاب العرش الذى ألقاه فكتور عمانويل فى تلك السنة : « إننا مع احترامنا جميع المعاهدات لا يمكن أن نصم آذاننا عن صيحات الألم التى تنبعث إلينا من نواح كثيرة فى إيطاليا » ؛ وسرعان ما توجه الأحرار إلى بيدمنت بآمالهم فى انتظار ساعة الخلاص على يديها

هكذا كسب كافور حليفة قوية وكسب الرأى العام فى إيطاليا وبقى أن تعلن النمسا عليه الحرب ليتم رسالته ؛ وكان كافور يستعجل هذه الحرب ! إذ كان يعلم أن نابليون رجل قلب كثير الأهواء والنزعات، فكان يخشى أن يتخلى عنه ؛ وكانت الحكمة تقضى على النمسا أن تتريث حتى ينقضى ما بين كافور ونابليون؛ ولكن رأى الحزب الداعى إلى الحرب فيها تغلب على أولى الحكمة فأعلنت الحرب واحتلت جنودها بيدمنت . ومشت جنود بيدمنت وفرنسا فأوقعت بالنمسا هزائم متلاحقة كانت كبراها فى سلفرينو ؛ ورأى كافور والفرح يملأ فؤاده أنه من النصر النهائى على قاب قوسين ؛ فما هى إلا أيام ثم تطرد النمسا من إيطاليا ؛ ولكن شد ما أزعجه وآلم أن يرى نابليون يخذله على حين غفلة فيعقد الصلح مع النمسا فى فلافرنكا فى يوليو عام ١٨٥٩

حنق مازينى على كافور أشد الحنق لانضمامه إلى نابليون ؛ إذ كان الزعيم لا يؤمن بغير قوة الشعب ، ويخشى كما خشى فى أول سنى جهاده من الاعتماد على قوة خارجية قد يأتى من جانبها الخذلان بدل النصر ؛ وكان الخصام قد بلغ أشده بينه وبين كافور منذ عام ١٨٥٧ ، ففى تلك السنة فكر كافور فى بعث ثورة فى مودنيا وقابل مازينى شخصياً فى جنوة لهذا الغرض ، ووعده مازينى بالمساعدة ؛ وفى العام التالى رأى مازينى أن تكون الثورة فى الجنوب أيضاً فى صقلية ونابلى ، وكان قد أعد عدته لذلك ؛ ولكن الحكومة فى بيدمنت أساءت فهم أغراض الثوار فى جنوة فحسبتهم يعملون لإقامة الجمهورية وإسقاط الملكية، فشتت شملهم وأصدرت ضد مازينى ونفر من أصحابه حكماً غيابياً بالإعدام

ولما خذل نابليون كافور استقال هذا من منصبه ؛ فجاء مازينى إلى إيطاليا وإنه ليرجو أن يبعث الثورات الشعبية فى ولايات الوسط والجنوب عسى أن يصل بها إلى تحقيق ما عجز الزعيم السياسى عن تحقيقه ، واختفى الزعيم الشعبى الكبير عند حاكم تسكانيا من ولايات الوسط ، فقد كان هذا الحاكم يجله ويؤمن مثله بالوحدة وإن لم يأخذ بأخذه فى الاعتماد على الثورات ؛ وحاول مازينى أن يضمه إلى رأيه فلم يفلح

وأخذ الزعيم فى مخبأه يتصل بأعوانه ويحثهم على النضال ؛ وكان يرمى إلى اكتساح الولايات البابوية أولاً ثم يسير منها الثوار إلى ولاية نابلى فيتم بذلك توحيد نصف إيطاليا الجنوبى ؛ وكان كافور بينه وبين نفسه يعطف على هذه الحركة ويتمنى نجاحها لتكون أجل رد على النمسا وفرنسا ؛ وفرح أن يسمع عن مازينى أنه يدعو إلى ترك الخلاف الحزبى والعمل للوحدة فحسب ، بل لقد كان لا يرفض يومئذ ضم الولايات الجنوبية إلى بيدمنت

ولكن حاكم تسكانيا خاف من بقاء مازينى مختبئاً عنده ، ففى تهديد ولايات البابا ما يدعو إلى تدخل النمسا ، ولذلك طلب إلى مازينى أن يرحل فلم يسعه إلا الطاعة ، وخرج وإنه ليأسف الأسف كله أن يعامل هذه المعاملة من بنى وطنه وأن يكون فى إيطاليا سجيناً وهو ما يجاهد هذا الجهاد الهائل إلا من أجلها ، ولكنه تعود الألم وألف الصبر فى هاتيك السنين الطويلة ؛ واتخذ الزعيم سبيله إلى انجلترة من جديد

ومتى يهدأ هذا الثائر المجاهد ؟ إنه لن يعرف الهدوء حتى تتحقق آماله أو يموت ، ذلك ما عقد النية عليه من أول الأمر ، وذلك ما درجت عليه نفسه الحرة وصمد له قلبه الكبير

وعاد كافور إلى الحكم واتجه صوب فرنسا من جديد وقدم نيس وساقوى إلى نابليون ليكون ظهيراً له مرة أخرى ؛ ولقد حنق مازينى وغاريبلدى على ذلك أشد الحنق . على أن مازينى أخذ من جديد يفكر فى بعث ثورة فى الجنوب يؤيدها كافور ، وصرف إلى ذلك همه وما زال بغاريبلدى حتى حمله على أن يسير هو والبواسل الألف من رجاله إلى صقلية ، وقد جاء مازينى إلى إيطاليا متنكراً ليكون على مقربة من الأبطال المجاهدين ، وحل بجنوة وأقام بها فى مخبأ لا يراه أنصاره فيه إلا تحت ستار الليل، وراح يمد غاريبلدى ورجاله بكل ما يصل إلى يده من المال ؛ وحالف النصر غاريبلدى فعبر من صقلية إلى نابلى ، وطرب الأحرار فى إيطاليا كلها لهذه الحركة العجيبة تأتى على يد ذلك البطل العظيم ؛ وانتعشت آمال مازينى وذهب إلى نابلى ليستحث الفاتحين وكانت قد سقطت تلك المدينة فى يدهم ، وأخذ كافور يترقب فى حذر على عادته ويخشى أن يعتدى غاريبلدى وجنوده على أملاك البابا فتتدخل أوربا ، ولكنه ما لبث أن وجد الفرصة المرجوة فأرسل جيشاً دخل أراضى البابا ، ثم تقدم فكتور عمانويل على رأس جيش فدخل نابلى وقابله غاريبلدى وقدم له الطاعة ؛ ورأى الأحرار أن الوحدة المرجوة أوشكت أن تتم

ولما صار مازينى على مقربة من النصر أخذ ينادى بمبادئه الجمهورية من جديد فأدى هذا إلى حنق كثير من الناس عليه حتى لقد ألقيت قنبلة فى نابلى تحت نافذة مسكنه ، وطلب إليه

أصدقاؤه ففصل بعد احتجاج شديد وعاد إلى انجلترة فى نهاية ذلك العام ١٨٦٠ ؛ ولكنه عاد هذه المرة مسروراً بما تم تحقيقه من آماله، تطيب نفسه بما يحسه من شعور الناس جميعاً نحوه حتى الملك فقد قال حينما طلب إليه الخروج : « دعوا مازينى حيث هو ؛ إذا نحن عجزنا عن بناء إيطاليا فليبنها هو ، ويومئذ أكون أول المصفقين له » وإن الملك ليشعر فى قرارة نفسه أن ما تم بناؤه حتى ذلك اليوم من هذا الصرح إنما قام أكثره على كاهل ذلك المجاهد الصبور

لم يبق إلا روما وفينسيا كى تتم الوحدة ؛ وذلك ما كان يشغل مازينى بعد عودته إلى لندن . وكان لا بد من حرب ضد النمسا كى تضم فينسيا ، أما روما فقد كانت بها حامية فرنسية وقد تعهد فكتور عمانويل ألا يمسها بسوء بعد أن رفضت الانضمام إلى بيدمنت .

ولم يكن مازينى بالرجل الذى ينتظر ما عسى أن تفعل حكومة بيدمنت، ولذلك جعل يتصل بغاريبلدى لكى يحل العقدة أو يقطعها. وقد آلمه موت كافور عام ١٨٦١ على الرغم مما كان بينهما من خلاف

وفى سنة ١٨٦٢ هجم غاريبلدى ورجاله على روما فردته جنود عمانويل وأصيب البطل فى هذا الهجوم بجرح بالغ على يد رجل من بنى وطنه . وكان مازينى قد حضر إلى لوجانو ليكون على مقربة من هذا الجهاد الجديد ، ولقد آلمه ما حل بغاريبلدى وبخاصة عند ما علم بإلقاء القبض عليه وسجنه ، فراح يندد بالملك وحكومته فى حماسة وسخيمة لم يسع الملك إزاءها إلا أن يصدر حكم الإعدام عليه للمرة الثالثة

ولما فشلت حملة غاريبلدى ، عاد مازينى إلى انجلترة ، وكان يومئذ فى الثامنة والخمسين ، إلا أنه كان لطول ما أبلى وناضل يبدو أكبر سناً . على أنه لم يفقد شيئاً من حميته ، وظلت له حرارة قلبه وقوة روحه وحماسة عبارته وسحر نظرته ؛ وعاودته الفاقة فى غربته ، ولكنه ازداد أنصاراً ومحبين . وكان يؤلم نفسه أن يرى عمره يتصرم دون أن يستطيع أن يجعل للأدب ما أراد من خدمة. وكان فى تلك السنين يتتبع أخبار الحرب الأهلية فى أميركا ، واتصل بجماعة التحرير الانجليزية فى لندن . وكان يبدى إعجابه ببطولة الرئيس لنكولن وجهاده فى سبيل الوحدة والتحرير ويتمنى لو كان له مثل ما كان لذلك الرئيس العظيم من النفوذ الرسمى . ولما اغتيل الرئيس لنكولن حزن عليه مازينى أشد الحزن ، ولكنه كان يرى الفرق بينهما جلياً ، إذ لو حضره الموت الآن لمات قبل أن يرى وحدة بلاده ، ولم ينعم بها ساعة كما نعم لنكولن قبل موته

وحاول ملك بيدمنت أن يستعين بمازينى على بعث ثورة فى فنسيا وفاوضه فعلاً فى هذا ، ولكنه عاد فتركه أمام اعتراض رجال حكومته . وفى سنة ١٨٦٦ أعلنت حكومة بيدمنت الحرب ضد النمسا منتهزة فرصة انشغالها أمام ألمانيا ، ولكن جيوش بيدمنت هزمت فى البر والبحر هزائم كانت مخزية للملك ورجال حكومته ، ولقد أدت هذه الهزائم إلى نشاط دعوة مازينى من جديد إلى الجمهورية ، ولقد لقى فى تلك الظروف من الآذان الصاغية إليه أكثر مما لقى من قبل ؛ والحق لقد أصبح هذا الأعزل الشيخ رجل إيطاليا كلها . وأى رجل يبلغ منزلته وله من جهاده فى سبيلها زهاء أربعين عاماً لم يعرف خلالها إلا الغربة والفاقة والعذاب الشديد ؟ إن مخالفيه فى الرأى ومؤيديه جميعاً ليرون فيه الروح الذى علم الجيل وأوحى إليه الإيمان والفداء. وها هى ذى العرائض عليها أكثر من أربعين ألف توقيع ترفع إلى الملك بطلب العفو عن الغريب المجاهد كيلا يغمض عينيه إغماض الأبد فى بلد غير إيطاليا التى وهبها حياته ، وها هى ذى ولاية مسينا تختاره أربع مرات متتالية ليمثلها فى برلمان إيطاليا كلما أبطلت الحكومة انتخابه عادت الولاية فاختارته

وبقيت روما لتتم الوحدة وكان قد عاد غاريبلدى عام ١٨٦٧ بهجوم عليها ولكن الحامية الفرنسية انتصرت عليه فردته عنها . على أن مازينى كان يرجو أن تعلن روما الجمهورية فتكون عاصمة إيطاليا الجمهورية ؛ وقد عاد ينشر مبادئه الجمهورية ويأمل أن يبعث آخر ثورة فى البلاد تكون هذه المرة ضد ملكية بيدمنت وتكون غايتها إقامة الحكم الجمهورى ؛ وقد اتصل مازينى برجل ألمانيا بسمارك ورجا منه المساعدة فأطله بسمارك ثم انقطعت الصلة بينهما

وفى سنة ١٨٧٠ رحل إلى صقلية ليبدأ الثورة فيها على الرغم من توسل بعض أصدقائه إليه ألا يفعل ، وهناك ألقى القبض عليه فى بالرمو حيث سيق إلى السجن فى جيتا ؛ ودخل السجن الزعيم الشيخ وبود حراسه لو لم ينط بهم حبسه . أنظر إلى حارس السجن كيف يدير المفتاح فى مدة ثلاث دقائق حتى لا يسمع الزعيم أنه يغلق الباب عليه ...

[البقية فى ذيل الصفحة التالية]